خالد خليفة

نسرٌ على الطاولة المجاورة

دفاتر العزلة والكتابة

الدفتر الأوّل

نوفل

خالد خليفة

نسـرٌ على الطاولة المجـاورة

دفاتر العزلة والكتابة
الدفتر الأوّل

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2022 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2022
info@hachette-antoine.com www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine instagram.com/HachetteAntoine twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: **داليا ضاهر**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-060-091-1
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-060-092-8

1

الكتابة تعاني من سوء فهم مِن قبل الآخرين وفضولهم.
الكتّاب يحاولون شرح خصائص ومصاعب وصفات مهنتهم كي يثيروا التعاطف معهم، لكن دون جدوى.
غالبًا يبدو هذا الشرح سيّئًا، لا قيمة له، إن لم يشوّه عظمة هذه المِهنة، ويعترف للآخرين بحقّ التدخّل وإبداء الآراء بطريقة صنع النص.

•

على الكُتّاب ألّا يسلّموا أسرارهم، ليكتشف الآخرون ما يثير فضولهم بنفوسهم بعيدًا عن الشروحات البائسة، على الكُتّاب أن يزيدوا من غموض ألمهم، ويعترفوا بعجزهم عن إعادة توصيف ذلك الألم البهيج.

اللاذقيّة
١/٥/٢٠٠١

2

حين يشرح الكتّاب مهنتهم يبدون كلاعبي أكروبات في سيرك، يستجدون تعاطفًا من جمهور لا يفقه شيئًا في السيرك، وقوانين التوازن، كما لا يفهم روعة القفز والسير على الحبال. كلّ ما يطلبه الجمهور من لاعب الأكروبات ممارسة بهلوانيّته بتشكيلات جديدة، تمتّع ناظريه، ومتابعة السير على الحبل الرفيع دون أن يقع، كي تشهق القلوب معه. بينما الكتّاب يسعون بأقدامهم كي يقعوا في حفرٍ عميقة، مظلمة، لا يخرجهم منها أحد سوى وهج الكتابة حين تستسلم كامرأة على سرير من حرير لأصابع كاتب، الشيء الوحيد الذي لا يتقنه في الكتابة الحديث عنها.

3

أحسد الرسّامين.

يستطيعون رسم آلاف اللوحات خلال حياتهم، وبالتالي يحقّ لهم ارتكاب آلاف الأخطاء، لديهم آلاف الفرص للتجريب، واختيار الألوان والمواضيع، كلّ لوحة هي اكتشاف جديد للذات والآخر، بينما الكتّاب، بخاصّة الروائيين منهم، يقضون أوقاتًا طويلة مع نصّ واحد، يتحدّاهم، يشعرهم دومًا بالنقصان، وبعد الانتهاء من كتابة أيّة رواية، يشعر الكاتب بوقوعه في فخّ النشر المتعجّل، حتى لو انتظر سنوات طويلة. ببساطةٍ لا اكتمال في الكتابة عمومًا وفي الرواية خصوصًا.

4

الوحدة تقدّم آلاف الفرص والأفكار للكاتب، لكنّها تمضي من دون أن يستطيع التقاطها وغربلتها، بالتالي لا تثمر.
يجب طرد الآخرين أوّلًا من النصّ ومن حياة الكاتب، بالطريقة نفسها التي يُنظّف فيها الحقل من الأعشاب السامّة قبل حرثه وبذاره.

5

لا يعني وجودي مع الآخرين وبينهم أنّني محتشد بهم، أنا وحيد في كلّ اللحظات.

6

كلّ ما يصنع النصّ الروائيّ يجب أن يغيب عنه الألم والصمت، التأمّل وآلاف اللحظات المدمّرة، لن تقدّم شيئًا للرواية بل ستحوّلها إلى حقلٍ من الدموع، وسماء مليئة بالنحيب والآهات، ستمطر حبّات مطر لا ماء فيها، إن سرت تحتها لن تتبلّل.

7

الأقسى من الكتابة انتظارها.
انتظار لحظة إشراق الأفكار كي تأتي طائعة إلى بياض الصفحات، انتظار التسامح الذي تبديه الشخصيّات، وتبدأ في الإفصاح عن مكنوناتها وأسرارها وقبولها نسج علاقاتها فيما بينها بحرّيّة وديمقراطيّة ونكران لا مثيل له للذات. كمسافرين على سطح سفينة تعبر المحيط، يتبادلون الأنخاب وساحة الرقص، متحاشين الحديث عن خوفهم من مفاجآت العواصف والتيّارات البحريّة، إحساسهم بأنّ مصيرهم قد أصبح متشابكًا، ولّد لديهم شعورًا بالانتماء إلى هذه المجموعة الصغيرة، كلّما اشتد الخطر أصبحت ذكرياتهم وأسرارهم قابلة للتداول.
انتظار الكتابة يشبه اللحظات المدمّرة التي تجعل من الكتابة وهمًا لا يفصح عن حقيقته بسهولة.

8

من أكثر الأشياء التي عرفتها في حياتي بخلًا وأنانيّة هي الكتابة.
لا تقبل إلّا أن تقدّم لها القرابين كاملة، كما لا تقبل أن تُخلص لشيءٍ أكثر منها، أو تحبّ شيئًا أو أحدًا أكثر منها.
لا تمنحك فرصة لتدير ظهرك لها، إن فعلت ستغادرك، ولن تعود أبدًا.
كلّ شيءٍ مِن أجلها...
القلق والحلم، الخوف والشجاعة، التشرّد والاستقرار، السفر والحبّ، لون البحر وإعادة ترتيب العلاقة بين الذات والطبيعة، كلّ ما لدى الكاتب من أحاسيس وعواطف من أجلها أيضًا.
تريد ماضيه وحاضره ومستقبله.
لا تعتذر عمّا تتركه وراءها من خراب في ذات الكاتب.
إنّها الاحتمال الأقلّ ضآلة تحقّقه، والنهر الذي لا تستطيع رسم مسارٍ لاندفاعه وسط الأراضي القاحلة.

9

المستبدّ يحبّ أشباه الكتّاب.
لأنّهم يدورون في فلك لغته التي غالبًا ما تكون إنشائيّة، خطابيّة، لا قيمة إبداعيّة لها، تمنحه قوّة وهميّة، ليقودهم بعيدًا عن الحقيقة.
وهؤلاء الأشباه يكرّسون طريقة تفكير المستبدّ، يتقمّصون شخصيّته في معالجة الأمور، يتماهون في مفرداته، ويساهمون في إنتاج ثقافة تشبههم وتشبهه، أهمّ ما فيها صوتها الفارغ، المريع وابتعادها عن الحقيقة.

10

المستبدّ يحبّ أشباه الكتّاب.
مهما خرجوا على طاعته يبقون داخل دائرته، يبجّلونه ويقيمون له التماثيل.
في الوقت ذاته، يكره المستبدّ الكتّاب لأنّهم يجعلونه يحسّ بعجزه عن التعبير، واستحالة تدجينهم بمؤسّساته، يدمّرون لغته بقوّة سردهم، ويفضحون منظومته وهشاشتها وعدم صمودها أمام امتحان التاريخ.
المستبدّ يكره الكتّاب، فمهما اقتربوا منه يبقوا خارج دائرته، وبذلك يستطيعون الاقتراب من الحقيقة التي ترعبه دومًا.
المستبدّ يكره الكتّاب لأنهم يحطّمون سرديّته وتماثيله.

11

أشباه الكتّاب يمجّدون المستبدّ، لأنّه يمنحهم مشروعيّة الوجود، يقدّم لهم آلاف الفرص، وجبروته يسكن فراغهم.
يمنحهم مرجعيّة واحدة للكتابة، وطريقة واحدة للتفكير. في الوقت نفسه يُغدِق عليهم شارات السلطة والمجد التي لا تساوي قشرة بصلة في امتحانات الإبداع.
لا يبخل عليهم بالعطايا، فهو يعرف أنّ الأشياء تجعلهم أشباهًا أكثر، مثقلين بالرضا، لأنّهم يقفون في وجه المستقبل، يعطّلون الخيال، ويحاولون دون جدوى تدمير سلطته وإشراقاته.

12

اللغة قابلة للتصنيع والتغيّر بأشكال مختلفة، لكن لمرّةٍ واحدة، اللغة تقدّم خصائصها ورحابتها لكلّ الكتّاب بالتساوي، لكنّها تعشق الصانع الأمهر.

13

كتابة الرواية تشبه الرقص.
يبدو هذا التشبيه غريبًا إلّا أنّه حقيقيّ بالنسبة لي.
الرقص انطلاقٌ من الثبات إلى الحركة، وعودة إلى الثبات مرّةً أخرى، ضمن فضاء يحكمه الإيقاع.
وكتابة الرواية انطلاقٌ من البياض إلى السواد، والعودة مرّة أخرى إلى البياض، في فضاءٍ أيضًا يَحكمُه الإيقاع.
الهواة غير المحترفين في كلا الفضاءين.
الكاتب المحترف كما الراقص المحترف، يستطيع أن يبدأ الرقص فور سماع أيّة موسيقى، لكنه يحتاج إلى لحظة يُشرِق فيها جسده وتطير روحه، عندها يصبح المتفرّجون غير موجودين، يتلاشون رويدًا رويدًا ويختفون من حوله.
الكاتب الهاوي كما الراقص الهاوي، لا يرقص إلّا إذا استبدّت به الرغبة الشديدة، فيبدو مندفعًا، حارًّا، غير مكترث بالإيقاع الذي يلاحقه، ومهما حاول، لا يستطيع خلق إيقاعه الخاصّ لسرعة مروره على البياض، وتخطّيه للحظة الرغبة، يبقى الآخرون بالنسبة إليه موجودين، يحيطون به ولا يستطيع الإفلات من نظرات إعجابهم أو استهجانهم.

14

عدم الابتعاد عن الأوراق، عن مُحتَرَف الكتابة، عن الصمت، عدم الإحساس بأيّ واجب، السكون، المفاصل المُشبَعة بالكسل والراحة، كلّها مفردات ضروريّة لبدء الكاتب يوم عمل جديد.

15

لا حاجة للكاتب الادّعاء أمام ذاته، وطبعًا أمام الآخرين.

لا حاجة للكاتب تزييف ذاته أمام ذاته والآخرين.

لا حاجة للكاتب تجميل أنفه وحاسّة شمّه، ورغبة أصابعه، ولا حاجة لمنع جسده من الطيران وإثقاله بالآخرين إن بدأ يُحلّق.

لا حاجة للكاتب إثارة الضجيج من حوله، طالما تُغلّفه نعمة الصمت الرائعة.

16

في المدينة التي لا يعرفك أحد فيها، لا تخسر حرّيّتك، وتهدي الآخرين مبرّرًا للانفعال بحضورك، كلّما اقترب الآخرون منك ابتعدت عن ذاتك.

17

تغيير الأمكنة رياضة روحيّة خاصّة، لا يتقنها المولعون باحترام العادات.
الروائيّون من أكثر الأشخاص الذين لا يحترمون العادات خارج أوقات عملهم.

18

لماذا لا أكتب كلّ ما أراه جديرًا بالكتابة فورًا، لماذا أتركه يتسرّب إلى الذاكرة كي أكتبه بعد عام أو عشرة أعوام.
امتحان الكتابة أم امتحان الحواسّ؟

•

كلّ ما نراه، كلّ ما نشمّه، ما نحسّ به ونلمسه، نتركه ينسرب من بين أصابعنا إلى الذاكرة. نترك كلّ شيء لامتحانات الزمن،
كأنّنا ننتقم من تفاصيل حياتنا ردًّا على انتقام التاريخ من كتبنا.

19

ليست حياتي السابقة سوى وقع أقدامٍ ثقيلة على بلاطٍ بارد.
كلّ حياتي السابقة للكتابة ضجيج، لا أجد مبرّرًا له الآن سوى أنّه كان يجب أن يُعاش، يجب أن تسير هذه الأقدام بوقعها المزعج كي تصل إلى الصمت.

20

في المدن المزدحمة نتأمّل الجموع من خلف زجاج المقهى.
في المدن الكسولة غير المزدحمة نتأمّل الأفراد.

21

إذا كنت تبحث عن فكرة لرواية، أعد ذاكرة طفولتك إلى الشوارع، أفرد أسرارها المخجلة ولا تتشبّث بالأخلاق.
إبدأ من أعلى درجات الزندقة، لا تُجمّل ما حولك، كن ساخطًا على كلّ شيء، على العائلة والوطن والأصدقاء والمرأة التي تُحِبّ، والطعام الذي تشتهي.
كن ساخطًا ولا قدرة لك على الكلام.
كن ساخطًا ولا قدرة لك على الصمت.
إعتبر الجملة الأولى قضيّة حياة أو موت.
ركّز حاضرك وماضيك ومستقبلك على الجملة الأولى، وادخل في رهانٍ خاسر، كمقامر تساوت لديه خيارات الموت مع آمال الحياة.

22

في لحظة الكتابة، حياة الكاتب كلّها مقابل جملته الأولى، كسعيٍ نحو مستحيلٍ ممكن تحقيقه.
عندها بلا شكّ ستبزغ الجملة الأولى، وتدافع عن وجودها كزهرة شقائق نعمان وحيدة في نهاية فصل الربيع، فهي الوحيدة التي صمدت وتفتّحت في الوقت المناسب، ولم تلقَ المصير نفسه الذي لقيته شقيقاتها اللواتي تفتّحن في موسمهنّ، ثم خضعن للدورة الطبيعيّة لوجودهنّ.
تفتّحن ثم ذبلن ومتن.
زهرة واحدة من بين آلاف الأزهار ستعيد الربيع، وتمنحه طعمًا جديدًا.
ربيع في الصيف والشتاء، اختلاط رائع للفصول، وانبثاق رائع لقوّة العمل.

23

كتابة رواية بطريقة واحدة نعرفها.
كتابة رواية بلغة اختبرناها، يشبه تمامًا رؤية مدينة طوال يومٍ كامل، من خلف زجاج مقهًى، والاعتقاد أنّ هذه التفاصيل ستتكرّر نفسها في اليوم التالي.
الزاوية نفسها.
المقهى نفسه.
الموظّفون، الموظّفات، المارّة، الأرصفة، الأشجار نفسها.
الكتابة بهذه الطريقة تنتج نصًّا لا يستطيع الركض أكثر من خطوات قليلة، ثم لا بدّ من سقوطه ميتًا.
احتمالات الدهشة، حتّى لو كانت نسبتها واحدًا بالمليون، جديرة بالمغامرة.
سأفترض الآن.
من موقعي في مقهى السويس باللاذقيّة، والساعة الآن تشير إلى التاسعة صباحًا، مع فنجان قهوتي الثاني، يتكرّر مشهد مرور الأشخاص والسيّارات وباعة اليانصيب، تمامًا كما في اليوم السابق، إلّا أنّني أنتظر أن يحطّ نسرٌ على الطاولة المجاورة ويطلب قهوته، يجلس إلى كرسيّه ويتأمّل المارّة، رغم استحالة هذا إلّا أنّني أنتظره، أو أنتظر فعلاً يُشبهه، كحقيقةٍ غير قابلة للجدل.

24

كلّ ما نراه له وجوهٌ عدّة.
إذا أردنا كتابته في رواية، يجب اختيار الزاوية الأكثر إثارة وعمقًا، دون إهمال الزوايا الأخرى التي قد تبدو سطحيّة وتافهة، ففي النهاية سنكتشف حاجتنا الشديدة لتفاهتها، كما نحن في حياتنا بحاجةٍ للتفاهة.

25

الكتابة السيّئة تجعل حياة كاتبها أفضل.
الكتابة الجيّدة تجعل حياة كاتبها وحياة الناس أفضل.
لا أخفي سعادتي حين أستمع إلى أناس يحدّثونني بحماس عن مشاريعهم الكتابيّة. تلتمع عيونهم، أتلمّس سعادتهم، رغم يقيني أنّ كتاباتهم السابقة لم تبشّر بأيّ موهبة. لكنّي أتعاطف معهم، أنتظر جديدهم، وكُلّي أمل أن يكون في داخلهم شيء ستكشفه محاولتهم الجديدة للكتابة، لي كقارئ، ولهم ككتّاب. أكره أصدقائي الكتّاب الذين ينصحون الناس غير الموهوبين بالتوقّف عن الكتابة. في حياتي لم أقل لأحد يجب أن تتوقّف عن الكتابة لأنّك كاتب سيّئ، فأنا أعرف أنّ هذا الفعل يسعده.
بينما، مع الكاتب الآخر الموهوب، لا يحتاج الأخير إلى أيّة مساعدة أو اعتراف، إلّا في بداياته. وهذا الاعتراف في بداية حياة الكاتب مهمّ إلى درجة لا يستطيع مانحها تقدير خطورتها. حتّى الموهوبون يحتاجون إلى قطع سكاكر من معلّميهم ومحيطهم القريب الذي يثقون به، لكنّهم بعد ذلك سيعرفون حجم موهبتهم وقدرتهم على السيطرة عليها، وإدارتها بالشكل الأفضل. يُسلّمون كتبهم للجمهور في اللحظة المناسبة، وتنتقل سعادة الكتابة من الكاتب إلى قرّائه في عقد استلام وتسليم.
هذا على عكس الكاتب غير الموهوب، الذي تبقى سعادته بالنصوص المنجزة ناقصة، حيث لا أحد يمدّ يده ليأخذ عن كاهله هذا العبء الثقيل.

26

الضجر أحد أعداء الكتابة الشرسين، لا حدود لضراوته، لا ملامح، لا عناوين واضحة، يبثّ سمومه كسرطانٍ في جسد الكاتب وروحه. لكن من الممكن تحويله إلى صديقٍ رائع للكتابة، حين يكشف لنا دومًا، وبشكلٍ لا يقبل أيّ شكّ، أنّ السنوات الطويلة التي قضيناها في الجلوس إلى الطاولة وحيدين كانت سعادتنا فيها وهمًا يجب عدم تكراره، هذه اللحظة والأسئلة تعيد الكاتب مرّةً أخرى إلى البدايات الأولى قبل احترافه الكتابة، وسؤاله العميق عن استطاعتنا العودة مرّةً أخرى، للبحث عن مِهن أخرى قد تكون أكثر متعة من الكتابة، وسؤالنا هل ضللنا السبيل كلّ هذه السنوات؟

كلّ هذه الأسئلة تحفّزنا من جديد، وتعيدنا إلى طعم البدايات، طعم الحماقة الأولى والاكتشاف.

كم نحتاج إلى الضجر. كم نحتاج إلى أعداء الكتابة.

27

الشهرة قد تودي بالكاتب إلى التهلكة، إن أسرف الكاتب في خسارة ذاته كجسدٍ وروح مكثّفة، محقّقة. يجب الفصل بين الكتابة كفعلٍ مستقلّ تمامًا، وبين آثارها اللاحقة كالطباعة والنشر والجوائز والقرّاء.

الشهرة لها ميكانيزم خاصّ تمنح صاحبها سُلطة غاشمة، يحتاج الكاتب إلى الكثير من وقته للحفاظ عليها ورعايتها، وإعادة إنتاجها بشكلٍ يوميّ، وهذا تمامًا ما تريده السُلطة من الكاتب، الدخول في دائرتها، والانشغال عن الكتابة ذاتها، بمجموعة أفعال متوحّشة تخضع دومًا للتقييم من قبل المجتمع، الذي تخضع فيه آليات الدفاع عن الخطأ إلى التعسّف.

28

الكتابة،
ألمٌ سعيد.

29

الشيء الوحيد الذي أعرفه عن الكتابة، حتّى الآن، هو ضرورة الجلوس إلى الطاولة ساعات طويلة وبشكلٍ يوميّ، كأيّ عامل في المصنع، على حدّ تعبير إرنست همنغواي. وهذا الاكتشاف الأوّلي أتاح لي فكرة افتراقي عن مهنٍ أخرى يكون فيها الآخر شريكًا أساسيًّا لا يمكن الاستغناء عنه. وأستطيع أن أضيف، أنّني وعبر ثلاثة عقود من عملي في الكتابة، واحترافها بشكلٍ نهائيّ، تلمّست متعة الصبر الذي يودي إلى نفق الألم السعيد، الذي لا يستطيع أن يفهمه الآخرون، وشرحه ليس من واجب الكتّاب. لا أزال أعتقد أنّ الكتّاب هم أسوأ شارحين لنصوصهم وطريقة كتابتهم، كما أسلفت في فقرةٍ سابقة.
يشبهون في هذه اللحظات أطفالًا لا يجدون مبرّرات لكسرهم فازة ثمينة أثناء مرورهم قرب طاولة رخام. يقومون باختراع قصصٍ تزيد الطين بلّة، وتنقلب براءتهم إلى أدلّةٍ قويّة على إجرامهم.

30

في السنوات الأولى لبدايتي تعلّم الكتابة، أحسست بعمق أنّ مصيري هنا، في هذه الصفحات التي تنتظر إفساد بياضها. بدايةً كتبت الشِعر لسنوات طويلة، ونشرت الصحافة السوريّة قصائدي ولمرّاتٍ قليلة، حين كنت في الخامسة عشرة من عمري. لكنّني كنت أشعر، وبشكلٍ لا يقبل الشكّ، بأنّني سأغادر الشِعر إلى مكانٍ آخر. لم يمنعني هذا من اعتبار ما أكتبه تمارين، قدّمت لي فيما بعد فائدة عظيمة، كالعلاقة واللعب مع اللغة، تجريب عشرات الصيغ غير المحتملة والجديدة، قوّة المغامرة التي يبعثها الشِعر. لم أكتسب الانضباط المطلوب لصناعة روائيّ حتّى تجرّأت على بداية كتابة روايتي الأولى. لمدّة سنتين، كنت أنتظر نوم أهلي في المنزل، لأبدأ الكتابة حتّى الصباح، تاركًا كتبي الجامعيّة جثّةً تنتظر أن ألتفت إليها قبل الامتحانات بأيّامٍ قليلة. وهذه الرواية رميتها لاحقًا في سلّة المهملات، لاستعارتها دون أن أدري أصوات روائيّين آخرين عرب وأجانب، وعلّمتني الدرس الأساسيّ الذي سيبقى أيقونة تنير دربي طوال عمري. اكتشفت كم أنّ هذا الألم السعيد معقّد، لا تكفيه النوايا الطيّبة، كما لا يكفيه الجلوس إلى الطاولة ساعات طويلة، إنّه يريد حياتي كلّها، وقتي، خيالي، وأحلامي، وفي النهاية القدرة عل الرمي بقوّة بالنصوص الميتة إلى سلّة المهملات، أو حرقها دون رحمة ودون أيّ إحساس بالندم.

في النهاية أنا القارئ – الناقد الأوّل لنصوصي.

صُعقت حين اكتشفت عدم إعجابي بما كتبته بعدما قرأته، هذا الاكتشاف هو الأيقونة التي تحدّثت عنها، أنا ناقد نصّي الأوّل، وقارئه الأوّل، بقيت سنوات طويلة، وحتّى الآن، ينتابني رعبٌ حين أتحدّث إلى كتّاب معجبين بنصوصهم، لا أجرؤ على الاعتراف بأنّني لا أستطيع قراءة رواياتي بعد طباعتها، كما لا أعرف الحديث عنها، ويخجلني مديحها أمامي، فأتحوّل إلى طفلٍ صغير يتلقّى ثناءً من أحد. هذا الثناء يتطلّب شكر من يقدّمه، لأنّني أحتاجه في هشاشتي الإنسانيّة، أعود بعدها أتململ لنهاية هذه المقابلة السمجة، منتظرًا السماح بعودتي إلى اللعب الذي هو في النهاية لذّتي القصوى، وسعادة ألمي ووحدتي وعزلتي، رغم وجودي يوميًّا بين مئات الناس، حيث أنّني أكتب في المقاهي، وبقيت طاولتي محجوزة في أحد مطاعم دمشق لمدّة عشر سنوات، قبل أن تقذف بي الحرب إلى الشارع، للبحث عن مقهًى أستطيع العيش فيه، كما فعلت وعشت في نادي الصحافييّن لسنوات طويلة.

«سأعود مرّة أخرى للحديث عن الرواية الأولى والكتابة في المقاهي في الدفتر الثاني أو الثالث من دفاتر الكتابة والعزلة، حين أفتح باب مطبخي الروائيّ».

31

أكتب يوميًّا بعد استيقاظي فورًا، وغالبًا ما يكون هذا وقت الظهيرة، فأنا كأيّ رجلٍ شغوف بملذّات الحياة أريد الجنّة والنار كما أدّعي، أريد عيش حياة الليل، وفي الوقت نفسه أريد الكتابة بانضباط لم أجِد عنه منذ ثلاثة عقود على الأقلّ، أي منذ احترافي النهائيّ للكتابة في مجتمعٍ من أكبر عجائبه أن يقف شابّ في مثل عمري ذلك الوقت، أي في الثانية والعشرين، ويجاهر أمام عائلته أنّه يكره أيّ عمل غير الكتابة، إمّا أن يصبح كاتبًا أو ينتحر، لأنّه لا طريق ثالث لسعادته، هذا يعني بالنسبة لهذه العائلة أنّ ابنهم الفخورين بذكائه، كما كلّ العائلات فخورة بذكاء أبنائها، حتّى لو كانوا أغبياء، قد أصابه مسٌّ مِن الجنون، يريد أن يصبح عالة على أهله ومجتمعه. لكنّهم الآن فخورون بما أنجزته، وأحبّ أن أعرف هذا الشعور الذي يتحدّثون عنه بمحبّةٍ غامرة، متناسين معاركنا الطاحنة. أريد أن أكون فخورًا، ولو للحظة واحدة، بألمي السعيد، لكنّني لا أستطيع، قلقي وشغفي بالحياة كما بالاكتشاف سلسلة لامتناهية لن تتوقّف إلّا مع توقّف نبضي للأبد.

32

الكتابة تعيد طرح الأسئلة القديمة لتصبح هذه الأسئلة جديدة ومعاصرة كأنّها تُسأل للمرّة الأولى.

33

حين غادرت الجامعة كنت أتوقّع أنّني سأتحوّل من شابّ مشاكس إلى آخر أكثر عقلانية وهدوءًا، لكن ما حدث كان عكس ذلك. أصبحت أكثر جنونًا ومشاكسة. رفضت عروضًا كثيرة لأصبح محاميًا أو قاضيًا أو... أو... واخترت مهنة الكتابة التي أصفها بمهنة الألم، وبالوقت نفسه المهنة التي تمنح الأشياء والحياة طعمًا مختلفًا، لا يعرفه إلّا المحظوظون والحمقى أمثالي.

الآن، بعد هذه السنوات البعيدة أعود إلى الأسئلة نفسها التي لم تجد أجوبتها منذ ذلك اليوم الخريفيّ البعيد، وكأنّ كلّ الأشياء والأسئلة تعود إلى بدايتها، والتجارب التي مررت بها لم تمنحني الطمأنينة الكافية كي أكتسب الحكمة والرزانة المطلوبتين لرجلٍ تجاوز الخمسين.

الأسئلة نفسها: ماذا تعني الصداقة؟ ما هي ماهيّة الحبّ؟ ماذا أريد من الآخرين؟ إلى أين وصلت علاقتي مع الأشياء؟ كلّ هذه الأسئلة ستتكرّر بمفردات مختلفة، ولكنّ الأجوبة تختلف. بالنسبة لي، لم تكن هذه الأسئلة إلّا اختبارًا لقوّة روحي وقوّة الحياة التي لا أزال أمتحنها يوميًّا، وأحيانًا كلّ لحظة، ومقياس الطمأنينة بالنسبة لي هو قوّة الحماقة، ومقدار انفلاتي من القوانين الثابتة، التي يرغب الآخرون دومًا بتفسيرها على هواهم، وجعلها مجموعة قيود غبيّة تطوّق فعّاليتنا وأرواحنا، تجعلنا نتحرّك في فضاءات قميئة وقاسية، يكفي أن تكون فضاءات الآخرين وليست فضاءاتنا كي تكون كذلك.

وجود هذه الأسئلة، والحاضرة بقوّة، لا يعني أنّني لم أجاوب عنها أكثر من مئة مرّة، لكن كلّ مرّة لا أصل إلى يقين ورأي ثابت أو جواب نهائيّ. هذه الحيرة

منحتني شعورًا رائعًا بالتجدّد، يقيني أنّني لا أصلح كي أكون تابعًا، أو ببغاء يردّد أقوال الآخرين ويستلهم تجاربهم كي يصبح رجلًا حكيمًا. هذه الصفة التي كرهتها منذ ولادتي إلى الآن، لذلك لم أقدّم نصيحة لأحد في حياتي، ولم أصمّم أن يقتنع أحد بوجهة نظري، وبقيت شبه مفرد بينما الجميع يريدونني جمعًا بين الجموع. هنا تكمن خطورة أن نكون أشباهًا، ونتخلّى طواعيّة عن حقّنا المقدّس باختلافنا ورغبتنا باكتشاف كلّ شيء، فقط لأنّنا نرغب بتذوّق طعم المختلف، تجريب كلّ شيء وعدم الاكتفاء بالعيش على ضفاف الحياة الرائعة والعميقة. لا أنكر أنّ الكتابة منحتني الإحساس بالقوّة دومًا، وفي الوقت نفسه حماقتي المستمرّة التي لم تنقطع، منحت الكتابة وحياتي طعمًا مختلفًا، متجدّدًا، قد يكون بالنسبة لآخرين ليس الحياة المناسبة أو الطعم الذي يستسيغونه، لكنّها بالنسبة لي هي الحياة التي أريد لدمي أن يمتصّها.

أسئلتي القديمة نفسها يتردّد صداها أمامي كلّ يوم. لا أزال أبحث عن الأجوبة، وأوقن أنّ عدم وصولي إلى اليقين هو إشارة حنيني الدائمة إلى أيّام الحماقة بكلّ ما تعنيه من روعة الاكتشاف والغرق في الخطأ، وتقديسه، ضدّ ثقافة تريد تحويلنا إلى تماثيل شمعيّة، وببغاوات تردّد أناشيد اليقين الأبديّة، التي تودي حسب رأيهم إلى راحة النفس، وحسب نصائحهم تجلب لي المسرّات، وتجعل منّي رجلًا وكاتبًا محبوبًا، يحوز الرضا. لم يخطر في بالهم يومًا ما أنّني لا أريد أن أكون دون طعم ولا رائحة. أذكر الكثير من حوادث الطفولة القديمة التي كانت غامضة وحنونة، شيّقة وفي الوقت نفسه كانت الاختبار الأوّل لقوّة الشكّ، الذي لا يزال مستمرًّا ولم يتوقّف لحظة.

أعتقد أنّ توقّف الشكّ سيحيلني جثّة هامدة، قد تكون مزيّنة بالكثير من الألقاب والورود والمجد الزائف، إلّا أنّها في النهاية جثّة. لم يغرّني في يوم احترام الكثير من النساء والرجال الذين تحوّلوا إلى جثث وببغاوات تردّد صدى

أسئلة الآخرين، وتستعير ألوانهم، وروائحهم، تخلّوا طواعية عن أفضل ما في ذاتهم وروحهم. أنظر إلى أجسادهم وأراها هرمة، أتلمّس أرواحهم وأراها يابسة، وفي الوقت نفسه أنظر إلى أسئلتي القديمة بتبجيلٍ يحتاج إلى هدمٍ دائم، وإعادة الألوان كلّها إلى أمكنتها، والبدء من جديد بإفساد البياض.

34

إيماني لا يتزعزع بأنّ العلاقات العامّة لا تستطيع إنقاذ الكتابة السيّئة، وأنّ الكتابة الجيّدة لا تحتاج إليها.

35

نعم، لا يستطيع أحد أن يتجاهل الواقع، وليس مطلوبًا منّي أن أكتب عن البحيرات والأزهار، بينما أنا وشعبي غارقون في هذه الوحول والدماء كلّها.
لكنّني أعرف أيضًا أنّ كتابةً دون خيال هي كتابة ميتة، ستسير خطوات قليلة ثم تلفظ أنفاسها.
لا قيمة لأيّة كتابة دون خيال.

36

أعتبر الكمبيوتر رغم غبائي التكنولوجيّ غير المحدود نعمةً كبيرة، رغم حنيني وولعي برائحة الورق مع زملائي الكتّاب الحالمين في العالم.
كنت أكتب بأقلام حبرٍ فاخرة، وكثيرًا ما فقدت أقلامي لأنّها كانت عرضة للسرقة، كأنّه لا يليق بالشابّ المشرّد الذي كنته أن يكتب بتلك الأقلام الفاخرة. الأقلام التي لم تسرق، أهديتها لأصدقاء يستطيعون أن يحفظوها بعيدًا عن فوضويّتي وضياعي بعد الانتهاء من كتابة أيّة رواية.

37

أعتبر لقائي مع زملائي وأصدقائي الكتّاب في المهرجانات ومعارض الكتب، مناسبةً سعيدة لامتحان أفكاري عن الكتابة، وذاتي في بحثها عن الاختلاف، وقبول الآخر. أحبّ الكتّاب الكرماء الذين يتحدّثون عن ذواتهم وحيواتهم وتجاربهم، وغالبًا أصبح صديقًا مع هذا النوع من الفنّانين والكتّاب.

38

أحبّ الخرافات، والرواة الذين يتقنون فنّ السرد. كنت محظوظًا لأنّني قابلت الكثيرين منهم، رغم أمّيّتهم كانوا رائعين، بالإضافة إلى أنّني عشت في منزل يعجّ بالخرافات، حيث تتجاور الماركسيّة مع الرقى وأدعية الأولياء، مع جدّتي المقدّسة التي يزورها المرضى لتشفيهم، في تداخلٍ سرياليّ كنت أراقبه بحبّ شديد وذهول، والكتب المقدّسة هي الميدان الأكثر رحابة لهذه الحكايات. لا أزال أذكر كيف كنت أنتقل بين غرف منزلنا، من غرفة إخوتي الذين يتحدّثون عن الحتميّة التاريخيّة وأصل العائلة وطروحات إنجلز وماركس، إلى غرفة أمّي ورفيقاتها اللواتي يعدّدن كرامات الأولياء بيقينٍ كامل.

حتّى الآن، لا أزال أتعاطى مع هذه القصص بكثيرٍ من دهشة التصديق، بخاصّة وأنّني، حتى الآن، لا أستطيع فهم آليّة إرسال الفاكس، ويبدو لي نوعًا من الأسطورة المعاصرة التي حاول أصدقائي مرارًا تفسيرها لي، إلّا أنّني حقيقة لا أعرف كيف أصدّق ما أعتبره خرافة، حتّى ولو كانت محكومة بقوانين علميّة صارمة.

39

أبحث عن مواضيع رواياتي ببرود، ما أتلقّاه بحرارة اليوم يجب أن يذهب إلى امتحان البقاء. محرّضات كثيرة أراها وأسمعها وأقرأها يجب أن تبيت وحيدة في دهاليز الذاكرة. الفكرة التي تستطيع البقاء لزمنٍ طويل ستكتب بشكلٍ مؤكّد، وبدأت أعرف قوّة البقاء بالنسبة لفكرة أو صورة أو حكاية خاصّة، كما بدأت أفهم استعدادهم للتغيّر مقابل ولادتهم وحياتهم الجديدة في كتاب.

40

الكاتب المهجور من الكتابة يشبه بئرًا مهجورة، كانت قبل هجرها طوال عقود تحتفي بالماء والأعشاب التي تنمو دون نظام وبشكل مفاجئ لتمنح ألوانها الجديدة كلّ صباح، وبعد أن تشبّعت بضحكات الصبايا اللواتي يردن إلى البئر في الأرياف، وقلوبهنّ تبحث عن حبّ مفاجئ، بعد أن منحت كلّ الضحكات وقصص الحبّ الغريبة التي أنقذت البشر من جفاف الليالي. يتحوّل الكاتب الذي هجرته الكتابة إلى بئر مهجورة تشقّقت قاعها، وبدأت الأفاعي والديدان نهشها. تحوّلت إلى مصدرٍ للروائح الكريهة، لا بدّ من ردمها للخلاص من أذيّتها. الكاتب المهجور من الكتابة قاع متشقّقة، تعيث فيها ديدان الأرض، كجثّةٍ هامدة بعد بدء تفتّتها لم يعد يفدها سوى الدفن.

41

استهن بالأشياء الغالية.
استهن بالأشياء المحيطة بك كلّها.
فأنت لا تحتاج إلّا إلى ما هو غير مرئيّ بالنسبة للبشر العاديّين، لا تحتاج إلى السيّارات الفاخرة ولا إلى الملابس الغالية، كما لا تحتاج إلى الساعات الغالية.
لأوّل مرّة في حياتي اشتريت سيّارةً جديدة. لم أكن أعرف القيادة إلّا أنّني صمّمت أن أقودها بنفسي، بعد درسين من معلّم سياقة، سافرت إلى اللاذقيّة حيث ينتظرني أصدقائي. وبعد وصولي إلى اللاذقيّة سالمًا، وأثناء انعطافي من أمام مقهًى جلست فيه ذات سنة، وكتبت مسلسلًا كاملًا، اصطدمت السيّارة بباصٍ كبير كان متوقّفًا وفي منتصف الطريق.
حزن أصدقائي لهذا التشويه الذي أصاب السيّارة، وحين أخبرتهم عن مشاعري بأنني حزنت لمدّة خمس دقائق فقط، وأحببت منظر الضوء الملفوف بشريطٍ أصفر لاصق كدلالةٍ على خطأي كسائق.
فكّرت...
بأنّني لأوّل مرّة في حياتي، أمتلك شيئًا ثمينًا. راقبت روحي كانت مثقلة بها، أحسست بأنّ تدميرها لا يعني لي أيّ شيء، قد يحرّرني إلى الأبد.
استهن بالأشياء الغالية.
فالأشياء التي يرغب الآخرون في رؤيتك محاطًا بها، كدلالةٍ على نفوذك ستثقل روحك وتجعل من حركتها بطيئة، في فضاءٍ مسكونٍ بالكلام الذي هو الضدّ الأوّل للكتابة.

استهن بالأشياء الغالية.

إمّا تحكمك هذه الأشياء، وتثقل خطواتك، وتجعل منك كائنًا خائفًا على فقدانها أو تحطّمها، أو تحكمها بروحك غير المرئيّة. الكاتب لا يحتاج إلّا إلى أشياء قليلة تفي بالغرض الأساسيّ لحياةٍ ممتعة، وغريبة، ومدهشة.

إذا حكمت الأشياء تتحرّر كنسرٍ في فضاءٍ فسيح لا أحد يستطيع الإمساك بروحك.

وإذا حكمتك صادرت شجاعتك لتمنحك الجبن. صادرت حبّك، أعماقك، لتمنحك سطحيّة مفرطة، توصلك إلى الدمار. صادرت رغبتك بالنوم كي تحلم، لتمنحك رضًا عن الذات لا مثيل له، وهذا الرضا وحده كفيل بتدمير منظومة خيالك كلّها، التي تحلّق طوال الوقت في سماء بعيدة. بعيدة لا يراها أحد سواك.

42

شبّان، وصبايا صغيرات، رجال ونساء، أعدادهم تتكاثر كلّ يوم توقفني أو تطلب من أصدقائي رقمي ليتحدّثوا إليّ. يخبرونني عن رغبتهم بالكتابة، يضيفون أنّهم يمتلكون قصصًا رائعة تستحقّ أن تروى، كما يؤكّدون أنّهم يمتلكون أسلوبًا رائعًا يشهد لهم فيه أساتذتهم، ويطلبون نصائحي التي يختصرونها إلى مجموعة قواعد، يجب أن أعرفها وأمنحها لهم عن طيبة خاطر، وأنا أودّ فعلًا مساعدة هؤلاء الناس الرائعين الذين يحبّون أن يصبحوا كتّابًا، لكنّني لا أجد سوى نصيحتين، أولاهما ألّا يستمعوا إلى أيّة نصيحة، وثانيتهما أن يجلسوا إلى الطاولة، ويكتبوا ما يخطر في بالهم من قصصٍ يعرفونها، بالأسلوب الذي يستطيعون الكتابة فيه.

أبدو غبيًّا أو بخيلًا في نظرهم. لم أهتمّ بتقديم النصائح التي يقدّمها كتّاب آخرون، لكنّهم من المؤكّد لن يصدّقوا أنّني لا أعرف حقًّا الطريق إلى الكتابة، وأسعى كلّ يوم ولساعاتٍ طويلة كي أكتشفه، وألتمسه كقدرٍ يفرّ من أمامي كلّما اقتربت منه.

43

الكثير من البشر يخافون الكتّاب بقدر ما يحترمونهم. يبتعد الناس عن روي سيرهم الشائنة أمام الكتّاب. يكتفون بروي بطولاتهم وتضحياتهم الإيجابيّة، كدلالةٍ على إخلاصهم، ويبالغون دومًا بصفاتهم تلك، فالعاشقة المهجورة تروي كم كانت مخلصة لحبيبٍ لم يحترم هذا الإخلاص. والرجل الفقير يروي كم عانى كي يربّي إخوته الصغار، الذين بادلوه التضحية بالنكران، والأمّ التي هجرها أولادها، تتحدّث بمرارة عن طعم منزلها الصامت والحزين بعد هجره، كذلك المعلّم يتحدّث عن جحود تلاميذه. في النهاية لاحظت رغبة البشر جميعًا برؤية سيرهم مكتوبة كما رووها بكلّ ثقل صفاتهم الإيجابيّة.

لا يعرف هؤلاء البشر، أنّني ككاتب، لا يعنيني ما يقولون، وكيف يقولونه، إحساسي أثناء سماعي يقودني لاصطفاء ما يمكن كتابته. لا يعرفون أنّ الكتابة غير معنيّة بالإنسان المهذّب، الخالي من العيوب، وفي سعيها الدائم للوصول إلى أعماق الذات البشريّة تحطّم كلّ مقولات الأخلاق في طريقها، تكره البعد الواحد للشخصيّة، ولا تقف كثيرًا عند البكائيّات، لا ترحم الذات التي تخضع لتفكيك دائم من أجل إعادة تركيب الخير والشرّ وكلّ الألوان المرئيّة وغير المرئيّة حتّى بالنسبة للشخص الراوي.

ما يدافع عنه البشر من صفات ترضيهم في ذاتهم، لا تعني أيّ كاتب شغوف باللامرئيّ، كما شغفه العظيم بشخصيّاته التي يسير معها برفق، كي تتحوّل إلى النقيض إن أمكن، وتكتسب صفات الشرّير الذي يدافع عن الشرّ والشيطان كضرورةٍ للوصول إلى الله.

44

ربّيت النسيان طوال عمري دون أن أدري بأنّني أربّي الوحش الذي سأحتاجه ذات يوم. ببساطة أستطيع نسيان أسماء عمّاتي وأروي سيرهنّ متداخلةً وبشكلٍ خاطىء إلى درجة الشكّ الحقيقيّ بأنّني أعرف هؤلاء النسوة. في البداية كنت أشعر بالخجل من أفراد عائلتي والأصدقاء المقرّبين من العائلة لأنّني أرى في عيونهم نظرات التشكيك، لكنّني في النهاية إختبرت قوّة ذاكرتي ووجدت أنّ الذاكرة المثقلة بالتفاصيل تقف حجر عثرة في طريق نهر السرد المتدفّق، يجب محوها تمامًا والبدء بتمجيد النسيان كطريقٍ وحيد للوصول إلى مملكة الخيال الصاخبة.

45

العائلة تقدّم لك كلّ ماتحتاجه لتغادر منصّة الكتابة، تبقى الكتابة هي التهديد الأكبر لأسرارها. لا أزال جبانًا لا أجرؤ على تفتيش عار العائلة، لكنّي في أعماقي أعرف أنّني أحتفظ بتلك الحكايات إلى وقتٍ يجفّ فيه الخيال، وحين أصبح تقريبًا جثّة عفنة لا بدّ سأفتح تلك الدفاتر القديمة وأعيد كتابتها، لكنّي أنظر بمودّة حقيقيّة إلى الكثير من الأشياء اليوم. خلال السنوات الثلاثين الماضية فقدت مهارة النقد والسخرية، أصبحت أمّي بعد موتها أيقونة لا يمكن المساس بها، كما أصبح أبي الذي لم أكن على علاقة طيّبة معه شخصًا مسكينًا وضعيفًا، ويستحقّ الشفقة، رغم قوّته. في تأجيل الحديث عن تلك العلاقات المثيرة والبديعة فقدت الرغبة في الكتابة، أصبحت أكثر جبنًا في الحديث عمّا يجب أن أكتبه بكلّ حرّيّة ودون أيّ إحساس بالندم، كان الخيال الفائض الذي كنت أشعر به وأعيشه السبب الرئيسيّ في ذلك الفقدان، وحين سأقوم بالكتابة عن تلك الاسرار سأكون قد فقدت الشجاعة، أو فقدت تلك القصص والشخصيّات بريقها.

أنا نادم لأنّي لم أكتب سيرة عائلتي التي فيها الكثير لرويه بجماله وقبحه، لكنّني أعتقد بأنّني لم افقد رغبتي في إعادة ترتيب تلك الحياة الناقصة التي تشكّل موضوعًا رائعًا لاحتقار الفخر، والذي هو البوّابة الحقيقيّة للدخول عبر برزخ ضيّق ينفتح فيما بعد عن عالم ساحر أبطاله العمّات المتنفّذات والقويّات والخالات الضعيفات البسيطات، والأمّ الضحيّة لبطش الأب الذي عاش عالمه كلّه يدافع عن الفخر، وحين رأيته ممدّدًا في تابوته لم نعد نمتلك

الوقت لأسأله هل كان حقيقة يحبّ العائلة التي افتخر طوال عمره في الانتماء إليها؟ ينتابني الشكّ حقيقة، الفخر يقتل كلّ خيال، ويحوّل الكائن إلى طبّالٍ يقرع طبله طوال يومه مجّانًا، من دون كلمة شكر في النهاية، سيأتي يومًا ما ويظهر أحمق يقول الحقيقة، ويدمّر السرديّة التي دفع بشرٌ أعمارهم في تزويرها.

46

في عمرٍ مبكر هدمت اليقين، لكنّي لم أعرف كيفيّة التعبير عن اللايقين. لم أكن يومًا شخصًا مؤمنًا، وكنت قريبًا من الإلحاد طوال عمري. لكنّي كنت أحسد رفاقي الذين كنت قريبًا منهم، وعبروا من الإيمان المطلق إلى الإلحاد، أو من الإلحاد إلى الإيمان. لم أعش ذلك الشعور العظيم والتجربة العظيمة، الانتقال من أقصى الضفّة اليمنى إلى أقصى الضفّة اليسرى يكسب البشر شجاعة استثنائيّة لقول ما لا يقال. اختبروا وتلمّسوا الجمر بأصابعهم العارية، وبالتالي يحقّ لهم إخبارنا عن الطعم الحقيقيّ لتلك الأشياء والحقائق والأوهام، كما يحقّ لنا تجاهلها واعتبار كلّ ما يقولونه لا يعنينا، لكن حين تكون كاتبًا يجب أن تستمع باهتمام إلى هؤلاء الأشخاص الذين غالبًا ما يكونون خجولين وليس لديهم رغبة في الحديث عن آلامهم.

47

لم أفكّر يومًا بقسوة الخسارة، لكنّني في أعماقي تحاشيت الملكيّة غير الضروريّة. الأشياء تجعل من البشر جبناء، لم أعد أفكّر بالفرق بين الجبناء والشجعان، لقد فقدت الكثير من الأشياء والخصائص خلال السنوات العشر الماضية، ولست نادمًا على فقدي ما فقدت. ببساطة فتحت كفّي وجعلتهم ينسربون، أشياء فائضة عن الحاجة، واشخاص ميّتون منذ زمن في قلبي، لم يعد يهمّني الحديث عن تلك الاشياء والأشخاص الذين فقدتهم، ببساطة اعتبرت وجودهم في حياتي خطأ قامت الحياة بتصحيحه. إذًا، لا داعي للانفعال، بخاصّة وأنّني أيضًا فقدت طاقة الانفعال، وأصبحت ساهيًا، غارقاً في سأمي، كلّ ما فيّ لا يوحي بماضيّ الصاخب، حقًّا بدأت أشعر بأنّني شخص مختلف جدًّا، لا أشبه ذلك الذي كنته قبل عقدٍ من السنوات، لكنّه هذا الشيء الجيّد الوحيد الذي حصل خلال هذه السنوات.

48

أحبّ هشاشتي، ولا أريد التعليق على أفعال البشر وانتقادها، فقدت هذا الشغف. كلّ البشر كائنات مسكينة حين سيكتشفون حقيقة الموت سيندمون أنّهم لم يقولوا كلّ ما في صدورهم، لم يتقيّؤوا كلّ البحص الذي ملأ فمهم، لم يقولوا لمن يحبّونهم كم أحبّوهم، ولم يبصقوا في وجوه من كرهوهم، وأنا فقدت حتّى قدرة البصاق في وجوه من كرهت من البشر وهم ليسوا بأشخاص قلائل، وليست لديّ رغبة باستعادة القدرة على البصاق، توقّفت عن تبديد القليل من الكراهية والكثير من الحبّ في قلبي ممّا أحتاجه في كتابتي، وليس في معارك حول الكتابة.

49

ماذا يعني رواية جديدة؟ لحظات قليلة من الفراغ، ثمّ لا شيء، ستنضمّ إلى ما قبلها، لم يعد يعنيني إن نجحت أم فشلت، حتّى أنّي لا أعرف معايير النجاح، كما لم يعد يعني لي أيّ شيء إن ربحت جوائز أم خسرت، لم يعد يعنيني إن أحبّها الناس أم كرهوها، كلّ الصفات الجديدة لم تعد تعنيني. جرّبت كلّ شيء تجرّعته حتّى الثمالة، وعدت إلى صورتي الأولى لكن دون اندفاع، دون رغبة بشرح أيّ شيء، غالبًا الشرح يفسد المعاني. كعجوزٍ أمشي إلى زاويتي المعتمة، هناك سأقول للأشياء القليلة التي تبقّت لي كم أحبّها، سأقول لأصدقائي الذين أحبّهم أكثر من أيّ شيء كم أحببتهم وكم أحبّهم وكم سأحبّهم، وأوصيهم كيف يحتفلون بذكرى موتي.

50

منذ طفولتي كنت محظوظًا بأصدقائي، في الحدّ الأدنى لديّ صديق من طفولتي، وأكثر من صديق من أيّام الجامعة، وكلّ عشر سنوات أتعرّف على مئات البشر ويبقى في قلبي عدد قليل من الأصدقاء، أشعر كم أنّني محظوظ بأنّه لديّ أصدقاء يعرفون كلّ شيء عن حياتي، تفاصيلها، خيباتي، أسراري، هزائمي وانتصاراتي الصغيرة التي كنت فخورًا بها لكنّي الآن أنظر إليها وكأنّي لا أعرفها. لا أندم لأنّ لاشيء يستحقّ الندم.

51

الحماقة جزء رئيسيّ من الكتابة، والخطأ جزء لا يمكن نكرانه في حياة البشر والكاتب بشكلٍ خاص، لكن للأسف نقضي نصف عمرنا للتخلّص من الحماقة وإخفاء أخطائنا، أي ما هو ضروريّ لإنتاج نصّ لا يشبه نصوص من سبقونا بحجج واهية. السيف المسلّط دومًا على الرقاب من صيّادي الحماقة والأخطاء، يدخلنا ككتّاب في تجربةٍ أقلّ ما فيها يفقد الكتابة مهابتها، روعتها، وعمقها. أراقب الآن ما فعلت بنصف عمري الذي قضيته لأردّ على الفِخاخ المنصوبة في كلّ مكان، أندم في الحالات القليلة التي فعلت فيها ذلك، حتّى لو رددت أو شرحت بكلمة واحدة، أندم لأنّي لم أطح بها بقدمي. منذ زمن لم يعد يعنيني آراء الكثيرين ممّن يبحثون عن أيّة ذريعة لينصّبوا نفوسهم قضاة وحكّامًا لتقييم النصّ، متسلّلين من المكان الأضعف وهو شغفي بالخطأ والتجريب، وهي الزاوية الأكثر قوّة بالنسبة لي ككاتب والتي كثيرًا ما اضطررت لإغلاقها للمحافظة على صورة زائفة، تبدأ بنهش الكتابة داخلي وتحيلها إلى جثّة ميت لا تجد من يدفنها.

52

ماذا لو كان نتاج الكاتب لا ينُشر إلّا بعد موته، كم ستغدو الكتابة رائعة، خفيفة كطائرٍ خفيّ في حياة البشر. كم من الألاعيب ستنتهي، والمعارك الجانبيّة لن يكون لها أيّة قيمة، إذًا ماذا يفعل الكاتب الميت بالمجد، والثروات، والجوائز، ونظرات التقدير؟ لا شيء. سينسحب أكثر من ثمانين بالمئة من الكتّاب إلى مهنٍ أخرى، وستغدو الكتابة هي تلك المتعة الأزليّة، وذلك المجد المؤجّل الذي لا يفيد أيّ شيء. ستصبح الكتابة أكثر عمقًا، وقوّة، وأقلّ تبجّحًا.

53

كلّ يوم يموت في العالم كاتب كان من الممكن أن يكون ملهمًا، ولكنّه لا يولد كلّ يوم مثل هذا الكاتب الملهم في العالم. دومًا في الجثث النافقة للأطفال الذين يموتون جوعًا أو غرقًا كما حدث لمئات الأطفال السوريّين في السنوات الأخيرة، تستطيع إيجاد مستقبل العالم الذي يتمّ دفنه ببرود ودون أيّة شفقة.

54

غيظ الأعداء جزء من نصر الكاتب وتسامحه مع هذا الغيظ الذي يتحوّل كراهيّة عمياء، جزء من مجده.

55

حين تأتي الأفكار لا تقف في وجهها، دعها تنساب على الورق وتأخذ مكانها حتّى لو كان المكان الخطأ، سيكون لديك وقت طويل في الكتابات اللاحقة لاختبار أيّة أفكار ستبقى وتدافع عن نفسها في سياق السرد، وأيّة أفكار ستنسحب ببساطة لأنّها لا تستطيع الدفاع عن نفسها.
دفاع الشخصيّة الروائيّة أو الحدث عن نفسه جزء أساسيّ من معركة إقناعنا بمعركة بقائه ونجاته من الحذف.
الكثير من المواهب الكبيرة والخارقة ماتت ببساطة، لم تستطع الدفاع عن تطوّر مشروعها، أو حساسيّتها الفائضة لم تستطع التأقلم في الحدّ الأدنى المطلوب من أيّ كاتب لاستمرار حياته، وجزء من هذه المواهب ماتت لأنّ الآخرين بالغوا في مديحها.

•

نحتاج أحيانًا إلى تجاهل ما يقال حولنا، وبعض الغباء لنستطيع الهرب بكنزنا إلى قمم الجبال البعيدة التي لا يصل إليها إلّا أصحاب المخيّلة الفذّة.
نحتاج الكثير من الخيال والعمل الدؤوب وبعض الغباء للوصول إلى المجد.

56

دومًا سيكون هناك أحد يكرهك يتربّص بكتابتك وحياتك، ليست الأسباب مهمّة هنا، قد لا يكون هناك أيّة أسباب سوى كراهية هذا النوع من البشر لك. في كلّ الأحوال ليس مهمًّا التحليل العقلاني هنا وفي هذه الحالة. لكن عليك دومًا أن تفكّر بكلام كارهيك، وأعدائك أكثر من الاستسلام لكلام أصدقائك المادحين. في الشرّ وكراهية الآخرين وحسدهم بذرة الإبداع الكبرى، وجمرته المتّقدة. وفي الخير سلام داخليّ عميق تحتاجه لتعيش بقيّة ساعات يومك حين تكون بعيدًا عن الكتابة بهناء.

57

على الكاتب ألّا يلتفت إلى الوراء، الماضي جثّة تناسب الوعّاظ والنسّاك وكاتبي حكم التقاويم لكنّها لا تناسب روائيًّا يريد المقامرة برأسه مع كلّ رواية جديدة.

58

في الكتابة دومًا هناك سرٌّ عميق، بسيط يجب اكتشافه في فترة مبكرة من بداية مشروع أيّ كاتب.

59

مؤلم جدًّا عداء أهل المهنة، لكنّه ضروريّ أيضًا. كراهية أهل المهنة تمنح الكاتب مساحة إضافيّة للتأمّل في كتابته، في أبطاله، في سرده، في الجملة الأخيرة من روايته. يجب تحويل هذا العداء إلى طاقة إيجابيّة يمنحها لك هؤلاء الزملاء الأعداء مجّانًا، إيّاك ومقولة أنّهم أعداء يجب عدم الاستماع إليهم، لأنّ الكاتب وقتها سيقنع نفسه بأنّه ناجح، وهنا مقتل وتفريغ كلّ ما يقدّمه الأعداء من طاقة إيجابيّة لتحسين كتابتك، التي تتطلّب دومًا منك التفكير في ارتياد أمكنة جديدة لم يسبق لك أن وطأتها كتابتك من قبل.

60

يجب المحافظة على الخيال، إنّه جثّة كلب ميت أو حذاء مثقوب ومع ذلك يجب المحافظة عليه.

الخيال حذاء، كلّ يوم يفقد الكاتب جزءًا منه، بعد سنوات من الاستخدام الخاطئ والإسراف في السير فيه، في الظروف والأوقات كلّها يصاب بالاهتراء، يجب ترميمه بأناقة بشكل دائم، يجب أن يحافظ الكاتب عليه ويحميه من الموت الذي من الممكن أن يصيبه، عكس ما يعتقد الكثير من الكتّاب بأنّ الخيال لا يموت. يحتاج الخيال إلى ترشيد في الاستخدام كي لا يصاب الكاتب بالعمى، حينها لن ينفعه تاريخه الطويل في محاولات إنقاذه وإعادة إحيائه.

61

لا تقرأ كتب النقد، إنّها تفسد الذائقة. النقّاد دومًا لا يريدون التخلّي عن موقعهم بأنّهم معلّمون وواضعو قواعد لكتابة الرواية، متناسين أنّ النصّ أوّلًا، وهذه المعركة ستبقى أزليّة بين النقّاد وبين الكتّاب، ومن غير المطلوب أن يربحها طرف، ويهزم الطرف الآخر، يجب إبقاؤها في مكان التواطؤ التاريخيّ بين كتّاب النقد والمبدعين.

62

أشعر بالشفقة الشديدة حين أرى كتّابًا يحومون حول بعض الأشخاص الذين عاشوا حياة غريبة أو تعرّضوا لصدفة قلبت حياتهم رأسًا على عقب. أشعر بالشفقة على هؤلاء الكتّاب الذين يريدون، ويفاخرون بأنّ ما كتبوه قد جرى في الحياة بحذافيره، بخاصّة وأنّ الحياة مليئة بالكاركترات الغنيّة التي يكفي الكاتب أن تمنحه معاشرتها فكرة صغيرة، أو طرف خيط صغير جدًّا، ولكنّ الخضوع للشخصيّة الحقيقيّة بشكل كامل يشبه الخضوع الكامل للواقع والذهاب إلى الكتابة الجافّة، دون خيال، دون مفاجآت.

الرواية تعيش في الضفّة الأخرى، حيث لا يقين هناك ولا شخصيّة حقيقيّة تستحقّ أن تكون موجودة بشكل كامل دون خيال حتّى لو كان صاحبها الأكثر فرادة في العالم.

63

أنا أذهب إلى الأمكنة التي أحبّ، أعاشر الأصدقاء الذين أحبّ، ولا أفكّر للحظة أنّهم موادّ أوّليّة لرواياتي، لكنّني أكتشف، وغالبًا بعد الكتابة، أنّ هؤلاء الأشخاص قد وجدوا حيّزًا في شخصيّات رواياتي. اكتشفت في وقتٍ متأخّر بأنّني أميل إلى الأشخاص الذين لا يدّعون البطولة ويعيشون الحياة بمللٍ دائم، ولكن بحماسٍ في الوقت نفسه. في كثير من الأحيان قابلت نساء ورجالًا يريدون أن يرووا لي حياتهم لأكتبها، إلى درجة أنّ أحد الأشخاص عرض مبلغًا محترمًا من المال لأكتب سيرته، ولا أزال أذكر في تلك اللحظة شعوري تجاهه بشفقةٍ لامتناهية. لم أره فيما بعد، تحاشيت رؤيته رغم مودّته الكبيرة لي وتعبيره عنها كلّما رآني. فكّرت وقتها أنّ صداقتنا ستموت باكرًا لاعتقاده أنّني أحتاج إلى موادّ أوليّة، وهي هنا تفاصيل حياته. لم أستطع غشّ الرجل واعتذرت عن فِعل ذلك. وأنتظر اللحظة التي أمتلك الشجاعة الوقحة لأخبره أنّ حياته تشبه حياة أيّ شخص آخر صعد من قاع المجتمع إلى علّيّة القوم نتيجة فساده. ولا أستطيع تبييض صفحته وإعطاءه براءة ذمّة.

حتى الفاسدون يجب ألّا يغشّهم الروائيّ.

64

هل يمكن لكاتبٍ أن يتحدّث عن تجربته في السرد؟ أشكّ في ذلك، لأنّ ذلك يعني حديثه عن فشله في الوصول إلى الكتابة.
لا أزال أذكر حين فكّرت للمرّة الأولى بأنّني سأصبح روائيًّا. إنتابتني حُمّى حقيقيّة، لسنواتٍ كنت أكتب الشعر، وأعيش كما يليق بحياة الشعراء المتهتّكين، لكنّ طيف الرواية جعلني أنظر إلى قصائدي كنصوصٍ بائسة، ميتة، مجرّد تمارين لكتابة مقبلة سأُقدم عليها لا بدّ في لحظة غير بعيدة. كنت في العشرين من عمري، وغارقًا في حبّ الكتب، وتمضية الأوقات كشاعرٍ شابّ بين أدراج الجامعة وقاعاتها ومقاصفها، وشوارع المدينة الخلفيّة، مكترثًا بكلّ شيء إلّا دراستي. لم أكن أعرف شيئًا عن كتابة الرواية، لكنّني احتفظت في دفاتري بجملٍ منشورة في مجلّة شعر يوصي فيها همنغواي كتّاب الرواية بضرورة الجلوس إلى الطاولة لمدّة ثماني ساعات يوميًّا، ويشبّههم بعمّال المصانع. كنت أفكّر أنّني لن أستطيع فعل ذلك، وأتهيّب من أساتذتي، حين أقرأ دوستويفسكي كنت أشعر بالإحباط، كيف لي أن أكتب مثل هذا السرد العظيم، وهذا النهر الدافق من الأحاسيس. في أعماقي بهتت صفة الشاعر، وبدأت في كتابة نصوص شعريّة طويلة كتمرينٍ محتمل لكتابة الرواية. لم أستمع إلى نصائح بائسة توصي بكتابة القصّة القصيرة كخطوة أولى، كنت أكره القصّة القصيرة ولا أزال. وفي أعماقي كنت أفكّر أنّني إمّا أن أكون روائيًّا أو لا أكون. فقد الشِعر بريقه، ولم تعد تعنيني صفة الشاعر، إلى أن أنقذتني حماقتي وكتبت الجُمل الأولى التي تراكمت وأصبحت رواية طويلة.

كتبت بشكلٍ شبه يوميّ، لساعاتٍ طويلة، أكثر من سبعين ألف كلمة. إختبرت كلّ شيء، قدرتي على الجلوس إلى الطاولة، تنمية الخيال، اللغة، اللعب، بناء الشخصيّات، إختبرت كلّ أسئلة الرواية، واكتشفت أنّني أحتاج إلى الحماقة أيضًا لأحرق روايتي الأولى، التي كانت مستعارة من روايات أخرى. أحرقتها، شعرت بإحباط كبير، لكنّي شعرت بنفسي قريبًا من هدفي. إنتظرت حماقتي الكبيرة بعد سنة، لأكتب نصّي الأوّل «حارس الخديعة»، الذي كان بالنسبة لي إعلان هويّة غير مفهومة، لكنّها هويّة على كلّ حال. كان هدفي كتابة نصّ روائيّ لا يشبه نصوص الآخرين. كانت الفرادة دومًا تؤرقني، ولا تزال. نجحت التجربة رغم فشل النصّ في منحي لقب الروائيّ الذي كنت أطمح إليه. كانوا يقولون إنّه نصّ شعريّ طويل ومكثّف لكنّه ليس رواية. لم أردّ أو أناقش أحدًا، عرفت أنّ الطريق طويل وقاسٍ. شعرت أنّني على الطريق الصحيح، ويجب أن أختبر كلّ الأشياء التي تصنع من كائن غير مكترث مثلي روائيًّا. أقضي ليالي طويلة وأنا أفكّر في تفكيك نصوص الآخرين، التي علّمتني الكثير.

شعرت في تلك السنوات أنّني شخص غير مفهوم، أستطيع الجلوس إلى الطاولة لأشهر دون أن أغادرها، يكفيني القليل. وأستطيع الدفاع عن نفسي ضدّ النظرات المشكّكة، والشيء الرئيسيّ الذي فهمته جيّدًا أنّني يجب أن أصبح ناقدًا قاسيًا لنصوصي. لا أنتظر رأيًا من أحد، والشيء الرئيسيّ الذي تعلّمته أنّني يجب أن لا أدافع عن نصّي، يجب أن يدافع النصّ عن نفسه، وهذا ما حدث في روايتي «دفاتر القرباط». أصبحت حياتي مرتبطة بشكلٍ أو بآخر بالعمل طوال اليوم في كتابة الروايات. ببساطة رتّبت حياتي على تقريب كلّ ما يفيد كتابة الرواية، وإبعاد كلّ ما يؤذيها، حتّى علاقاتي الشخصية حَكمتها هذه القاعدة. تعلّمت أنّني قد بدأت الغوص في عالم لامتناه. يتكوّن من طرق

سرد لامتناهية، خيال غير محدود ولا يمكن تأطيره في سقف أو تبريره، فبحثت في حياتي عن مستحيلٍ لا يمكن تحقّقه بسهولة، ولا أزال.
بالتأكيد بعد روايتي الثالثة «مديح الكراهية» شعرت باسترخاءٍ كبير، وشعرت أنّي ذهبت إلى المكان الذي لا أمل في العودة منه، لقد أصبحت تلميذًا من جديد. كلّ جملة تعلّمني كيف يكون السرد، اللعب، الكهوف المخفيّة في الذات. تعلّمت أنّه لا يمكن لكاتب أن يتحدّث عن الكتابة، هناك طرق سرّيّة في تلك المدن الخفيّة التي أعيش فيها منذ ربع قرن، تقودني طرقها إلى متاهات لامتناهية. وكلّما وصلت إلى مفرق طرق أترك لقلبي أن يقودني إلى الطرق الأكثر وعورة. لم أعد أرى الحياة والموت كما يراهما الآخرون.
أصبحت حياتي المرئيّة مملّة، فقيرة في مفرداتها، لكنّ حياتي الأخرى غير المرئيّة شديدة الصخب لا يمكن لأحد أن يراها. تعلّمت الحفاظ على أحاسيسي طازجة، قويّة، لا تخطئ هدفها، أصبحت أكثر جهلًا وأكثر قوّة في النظر إلى الأشياء المرئيّة، لكن بطرائق مختلفة أيضًا لا يمكن حصرها.
حتى الآن ما تبقّى منّي هي تلك اللحظات التي تذكّرني بجهلي، ويقيني بأنّ طريق الروائيّ لا ينتهي، مفارقه كثيرة ومتشعّبة وليس بالضرورة كلّها تؤدّي إلى روما أو إلى الطاحون. قد يكون الروائيّ محظوظًا ويؤدّي به الأمر إلى مجرّات غير مكتشفة. كثيرًا ما أسمع عظامي تنهرس تحت وطأة الخوف من السرد والجمل المقبلة، لكنّ جلوسي الأبديّ إلى الطاولة، وشعوري بأنّني أمتلك وقتًا طويلًا يجعلني أشعر أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، سأجرّب السير في طرق السرد التي توصلني دومًا إلى طرق مجهولة أخرى. اعتدت عيش هذه الحياة-المتاهة بعد أكثر من ثلاثة عقود من جلوسي اليوميّ إلى الطاولة، لمدّة ستّ ساعات يوميًّا، واللعب مع طرائق السرد اللامتناهية والمنفتحة على مغاور ظلام النفس البشريّة.

كلّ نصّ جديد يعلّمني أنّني لا أزال في أوّل الطريق، هناك وعد دائم بملذّات كثيرة يجب اكتشافها ما دمت قادرًا على السير بتؤدة، والنظر إلى العالم بهدوء وبرود.

65

الكاتب نبتة غريبة، شتلة نعنع بطعم مانجا، وشجرة برتقال تثمر قمحًا. هذا غريب بالنسبة للبشر، لكنّه أقلّ من عاديّ بالنسبة لكاتب. يجب أن يدع هذه الفرادة تقوده من يده إلى أقداره، ولا تأخذ أسئلة البشر الفضوليّين على محمل الجدّ.

على الكاتب أن يهرب بأيّة وسيلة من شرح الخلطة السرّيّة لشجرة جوز تتساقط من أغصانها حبّات زيتون. لأنّه في دخول الكاتب إلى متاهة الجواب يحوّل الطبيعيّ إلى ظاهرة غريبة. الكاتب نبتة غريبة في أرض بوار، كلّ صباح يخرج من سريره حاملًا جذوعه وشروشه، وأغصانه، يخرج إلى الشمس، ينفض العصافير عن كتفيه ويبدأ الكتابة.

لايشبه أحداً ولا أحد يشبهه، إنّ التشابه يعني موته.

66

الكاتب الموهوب يجب أن يتذكّر أنّه في كلّ خطوة راسخة يخطوها، يموت في اللحظة نفسها عشرة كتّاب غير موهوبين. وبعض هؤلاء بسطاء ومساكين، حالمون دفعوا حياتهم ثمن وهمهم، عاشوا بموهبة متواضعة، حاولوا بشتّى السبل أن يصبحوا كتّابًا لكنهم لم يستطيعوا، رغم كتبهم المطبوعة. ظروفهم الصعبة، موهبتهم وخيالهم المحدودان لم يساعداهم، هؤلاء البشر اللطفاء أهل الكاتب، يجب أن يرعاهم، ويأخذ بيدهم ليشعروا به امتدادًا لهم، ويجب أن يشعرهم دومًا بحقيقة وجودهم الرائع في حياته. إنّهم السياج الأخلاقيّ الذي يستند عليه، وإذا إستطاع مساعدتهم يجب أن يفعل دون منّة عليهم، واجبه تجاههم.

أمّا النوع الآخر اللئيم، الذي يعتبر الكاتب الموهوب أخذ من حصّتهم في الموهبة، هؤلاء يجب على الكاتب أن لا يصادقهم، ولا يأتمنهم على أسراره. إنّهم شرٌّ صافٍ لايحتاج إليهم في حياته، بالعكس وجودهم تأجيل لمشكلة آتية معهم، سيستخدم كلّ طرف فيها جميع الأسلحة. سيضرب كلٌّ تحت الحزام من أوّل لحظة يكون الآخر مكشوفًا له كأيّ ندل.

لا أستطيع إرشاد الكاتب للتمييز بين النوعين، لكنّي واثق أنّ عقل الكاتب الوقّاد وقلبه الطافح بالخير سيرشدانه إلى النوع الطيّب ويبعدانه عن النوع اللئيم.

67

الكاتب سيقابل كلّ أنواع الكتّاب والكاتبات. سيقابل معاني عظيمة للنبل والشجاعة والكرم، وفي المقابل معاني للخِسّة والوضاعة والحقارة. عليه أن يدرّب حواسّه على تشمّم الروائح، ويكون شجاعًا، لا يقترب من الخِسّة، لأنّها تترك أثرًا من الرائحة القذرة على روحه، سيبذل جهدًا كبيرًا للتخلّص منها وقد لا ينجح في ذلك.

68

رغم أنّ مهنة الكتابة قاسية، وتعيش في الظلام، إلّا أنّ الحسد الذي يحيط بها لا يشبه أيّ حسد في مهنٍ أخرى. إنّه قاسٍ وقاتل، سيجده الكاتب في كلّ مكان، وأخطره ما يأتي من أبناء المهنة. أولئك كتّاب الدرجة الرابعة الذي يندبون حظوظهم من أنّ كل مراسم التبجيل قد تخطّتهم، لأنّهم يرفضونها أصلًا، فالجوائز عرضت عليهم لكنّهم تركوها للكاتب الموهوب. عروض دور النشر الكبرى في العالم كانت على طاولاتهم لكنّهم لأسباب مبدئيّة تركوها له. على الكاتب أن يمرّن ذاته على السخرية وعدم الاشتباك مع هذا النوع من الحسد. إنّه قاتل، مسموم، والكاتب لا وقت لديه لردّ هجمات لن تتوقّف على حياته المهنيّة والشخصيّة.

في هذه الحالة على الكاتب التزام الصمت، استدعاء ثقته بنفسه. يستطيع الخروج إلى الطريق الذي يحبّه، يمشي ويستنشق الهواء ملء رئتيه، ولدى عودته إلى منزله لا بدّ من المرور من مجمع الخيام التي ستبنى لشتمه، عليه المرور بهدوء كنسمة ورد، والتسلّل كلحظة عاشقة، عليه الاندساس في سريره والنوم ملء الجفون عن شواردها، ولا ينسى المتنبّي الذي لخّص لنا كلّ شيء قبل ألف عام حين قال:

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

على الكاتب أن يستمتع في أعماقه بأنّه يثير حسد كلّ هؤلاء البشر. الشرّ جزء من البشر، وهذه الكرنفالات تساعد بذور شرّ الكاتب على النموّ. ولكن يجب

أن ينتبه إلى عدم وصوله إلى الانتقام. عليه أن يدعهم ينفعلون ويبكون في أسرّتهم ويتحدّثون لساعات عنه. الكاتب لا ينتقم لكنّه لا ينسى ولا يسامح. التسامح سيفقد الكاتب كتلة الشرّ الضروريّة لحياته رونقها. وعليه ألّا ينسى أنّه بعد شارعين يتجمّع أحبابه، يرمون له القبلات من النوافذ حين يمرّ، يرسلون له الزهور والحبّ كلّه.

69

آمل أنّه، في 2050، ستكون حياتنا التي عشناها خمسين سنة في ظلّ الديكتاتوريّة قد أصبحت جزءًا من الماضي. لكن لو عاش الكاتب بعد خمسين سنة وبقيت الديكتاتوريّة تتناسل، سيتلمّس أنواعًا مختلفة من الحسد مختلفة عن النوع المتفشّي في أنظمة ديمقراطيّة. في ظلّ الديكتاتوريّة هنا، سيجد الكاتب نوعًا نسمّيه الشبّيح، قاطع الطريق، يجده الكاتب فجأة ظهر أمامه، نصب حاجزًا وأخرج من جيبه غرف الكونكريت، ومن أذنيه المسدّسات، وجلس مقلّدًا الضبّاط، يحدّث الكاتب بترفّع عن أوهام لا تخطر على بال الكاتب، ويريد منه دومًا البقاء تحت الحذاء. لذلك حين تكون كاتبًا وموهوبًا يجب أن تشعرهم بأنّهم عبارة عن مخاط وقذارة مكانها الطبيعيّ المجارير. على الكاتب ألّا يخاف من هؤلاء، إنّهم فارغون، يحتاجون إلى دبّوس، كلّما قلّ خوف الكاتب ازداد رعبهم منه. الكاتب الموهوب صوت الله الذي يخشونه دومًا.

لكن على الكاتب الموهوب أن يحترس، إنّهم أندال، غدّارون يريدون سلب الكاتب كلّ لحظات مجده الذي يبنيه بتؤدة وصبر كبيرين. قد يقطعون طريقه ويحرّضون عليه حين يكون في الواجهة، يخترعون له قصصًا، ويهينون نصوصه، ويهمسون في الغرف المظلمة أنّه خائن للوطن. يكتبون فيه التقارير عن سلوكه الإمبرياليّ المعادي للنظام. على الكاتب ألّا يكترث ولكن يجب ألّا يقلّل من خطر المخبرين وإزعاجهم. يلمّحون بين الحين والآخر إلى سلطتهم التي يمتلكها أقاربهم، أو يمتلكونها، هؤلاء البشر حين يقابلهم الكاتب يجب أن

يبصق عليهم كإجراء احتياطيّ، لأنّهم سيبتزّونه ليبصق عليهم. على الكاتب ألّا يتوانى عن إغراقهم في بوله، سيعرفون أنّ قوّة الكتابة جزء منها شجاعة لا يمتلكها الجبناء المخبرون دعاة الديكتاتور ورجاله ونساؤه.

70

لو أنّ كاتبًا موهوبًا وُلِد اليوم في الأسبوع الثالث من شهر حزيران من عام 2015، وإذا افترضنا أنّه وُلِد الآن، أو خلال هذه السنة، سيكون عمره في 2050، خمسة وثلاثين سنة، وهو العمر المفترض لحسم الخيارات في الحياة. فإذا أصابه الحظّ، واكتشف موهبته باكرًا، واستطاع تقديرها وإدارتها، وقرّر المضيّ في درب الألم، يجب أن يعرف أنّه سيكون من قلائل جدًّا في هذا العالم، يشبهونه ويشبههم، وسيتعرّف عليهم فيما بعد، في مناسبات عديدة، ومحافل مختلفة. أحبّ أن أبارك له أنّه اختار مهنة الكتابة التي لن تمنحه ذاتها سوى بالتقسيط، وفي القسط الأخير قبل أن يموت بدقائق ستمنحه ضوءًا ساحرًا، يقوده من يده إلى ملكوت لا يعرف أحد عنه أيّ شيء. نعم الكاتب إبن الربّ، لكن قبل كلّ شيء يجب أن يتعلّم ما هو أهمّ من الموهبة، وأقصد فنّ إدارة هذه الموهبة، وقوّة العمل الجبّار، يجب أن يتحوّل إلى بغل قويّ، بقلبٍ من ورد، وذراعين صلبين، لينجو بموهبته.

71

حين سيطبع الكاتب كتابه الأوّل، سيتأمّل النقّاد والصحفيّون الكتاب ويهزّون برؤوسهم ويهمهمون بكلامٍ ثقيل قائلين جميل، جميل، لكن ننتظر الكتاب الثاني. حينها، يتوجّب على الكاتب أن لا ينتظر، يجب أن يدير ظهره ولا يعود للاستماع إليهم، عليه أن يذهب إلى حيث رفاقه يرفعون الكؤوس، يطيّرون أحذيتهم في الفضاء ويملؤون دوارق الخمر، ويسكبونها احتفالًا به وبكتابه، عليه العيش مع من يحبّونه من قلوبهم. الكاتب رغم صلابته يجب أن يتذكّر أنّه هشّ يحتاج إلى رعاية خاصّة دومًا.

وحين سيقطف جائزته الأولى سينظرون إليه بعدم رضًى، لكنّهم سيضحكون ضحكات صفراء ويهمسون أنّه مرتبط بلجان الجوائز، على الكاتب ألّا يكترث، عليه أن يستمتع بالجوائز والتكريم ولكن يجب الانتباه أن لا يعلّق على جدار غرفته ما يشير إليها، يجب أن يخفيهم بعيدًا عنه، وإن استطاع أن يضيّعهم، أو يرميهم في قاعٍ سحيق لبرميلٍ في قبوٍ بعيد. وجودهم قريبًا منه أو على حائط مكتبه سيقيّده، ويؤدّي به إلى التهلكة. الكاتب خفيف، كطائرٍ حرّ، يفرد جناحيه بهدوء وثقة ويضع عينيه بعين الشمس ويطير ليصل إليها، لا يحتاج إلى ما يثقل حركته وطيرانه.

وحين سيبدأ الكاتب في مرحلة الانتشار خارج مدينته، لن ينتبهوا إليه، لكنّ انتشاره خارج بلده إلى البلدان المجاورة سيثير انتباههم، أمّا قطعه الحدود ومع أوّل ترجمة مهمّة له ستتغيّر حياته، إنّها لحظة حاسمة يجب أن لا يستهين بها. بدأت مرحلة مختلفة من حياته يجب أن يفكّر فيها مليًّا ويتأمّل حياته

السابقة. اليوم تبدأ كتبه مسيرة مختلفة، عليه ألّا يساعدها ولا يشرحها لأحد، فقط عليه تأمّل مسيرها في تلك المدن الكبرى. هناك سيفتحون له الباب مواربة، ويتفحّصون لون عينيه، وكلّ حركاته. سيجد بشرًا رائعين سيأخذون بيده كطفل، إنّهم النبلاء الذين تحدّثنا عنهم. وسيكون ظهره مكشوفًا لبني قومه، ولكتّاب لغته، والشبّيحة لن يتركوه يمرّ بسهولة، لكن يجب أن يفوّت عليهم فرصة استمتاعه بحياة كتبه الجديدة. الترجمة حياة جديدة لكتبه، وليست استمرارًا لحياته. يجب أن يتعامل معها بحذرٍ واحترام ولا يغشّه بريق الأضواء. هنا المحافظة على اشتعال الأضواء قد يكون مكلفًا جدًّا، وعليه أن يتذكّر في تلك اللحظات حياته حين كان طفلًا. تساعده سنوات البراءة على اجتياز تلك الجسور، عليه ألّا يدّعي شخصيّة أخرى، إنّها كتبه التي ولدت وليس هو من وُلِد من جديد، هو بقي كما كان، يجب أن يبقى، رائحة الزيف واحدة وتفوح بسهولة. لا يمكن رمي القناع إذا ارتداه الكاتب مرّة واحدة، سيصبح جزءًا من حياته، ويكون عبوره هذا قاتلًا. عليه ألّا يغيّر مكانه في تلك اللحظات، أو الأشهر القليلة، عليه أن يدع كتابه يسافر وحيدًا، يبحث عن أشخاص آخرين يعتنون به.

72

لا يقطع أحدٌ طريق الكاتب المستسلم إلى كتابته إلّا لأنّه يريد أن يجرّه إلى حفرته المليئة بالحقد. على الكاتب تذكّر ذلك وهو يتلقّى الطعنات مِن كاتبات وكتّاب خاسرين. لا يغفر له تعاطفه ذات يوم مع خسارتهم، على الكاتب ألّا يخاف لما يثيرونه من غبار. سيأتي المطر في النهاية ويعيد ترتيب الأشياء كلّها، سينقشع الغبار، ويعود الكاتب وكتبه للتوهّج من جديد، كأيقونة ثمينة صنعها فنّان مجنون كانت مختبئة في قبو دير قديم. في انتظار هذه اللحظة، سيخرج الكاتب مثقلًا بالجراح من كلّ معركة، لكنّه أكثر قوّة، وإبداعًا، بينما أعداؤه، وحاسدوه، سينزّ من قلبهم صديد أصفر، يشبه القيح، سيختنقون به وبرائحة بول الكاتب.

على الكاتب ألّا ينتقم لكن يجب أن يعيد ترتيب أسوار حماية ذاته، هنا الكاتب في لحظة فارقة، يجب عليه ألّا يمنحهم شرف الوجود في سيرته الشخصيّة.

73

كلّما ازداد الكاتب شهرةً ستزداد حملات التشكيك به، بكتبه، بحياته، لذلك الشهرة وباء يجب الاحتراس منه، وتأجيله قدر الإمكان، في بلدان كبلداننا حيث تلعب الشائعة دورًا فظيعًا في التحطيم. يجب أن يكون الكاتب يقظًا، ويتعلّم متى يغلق الباب وراءه ويتركهم ينبحون، والأفضل للقافلة التي تسير أن لا تسمع صوت الكلاب، إنها تفسد صمت الإبداع المقدّس.

74

على الكاتب ألّا يستنكر الحماقة، إن لم يكن أحمق أو أخرق في العشرينات، يجب أن يتأكّد من تقييمه لموهبته. الحماقة جزء رئيسيّ من مشروعه الذي يحرث في أرض جديدة. عليه أن يتذكّر دومًا أنّ الحماقة لا تعني قلّة الأدب مع الأشخاص والتطاول على الأساتذة والمعلّمين. لن يتأذّى دوستويفسكي حين يتحدّث عنه كمدّعٍ، أو كرجلٍ يحبّ الاستعراض، لو كان دوستويفسكي لا يزال يتنفّس ويعيش بيننا، قد يرحّب بأيّ رأي فيه ذكاء، لكنّه سينزعج من أيّ مدّعي تفاهة. لقد رُمي العباقرة كلّهم بالحجارة من زملاء عديمي الموهبة، وتعرّض العباقرة للتشكيك في كلّ شيء فعلوه، لكنّهم انتصروا في النهاية، ذهب أعداؤهم إلى مجارير التاريخ وبقيت سير هؤلاء العباقرة وكتبهم وإبداعاتهم منارة تنثر الجمال في لحظات البشريّة وحياتها بكلّ أجيالها. على الكاتب ألّا يستهين بمعركته مع التاريخ، إنّها المعركة الوحيدة التي يستحقّ أن يفكّر فيها، ومطالبها بسيطة جدًّا أن يكون جديرًا، لكن، يجب أن ينتبه، إلى أنّه في معركة التاريخ، سيفكّر أعداؤه بالبقاء قربه، حتّى بصفة قتلة، وشبّيحة. المهمّ أن يقترن اسمهم باسمه في التاريخ، وهناك حكايات كثيرة عن مبدعين استثنائيّين تعرّضوا لاغتيالات معنويّة، من أجل أن يبقى القتلة إلى جانبهم. على الكاتب أن يتذكّر ويستعيد سيرة محاولة قتل المعلّم نجيب محفوظ، بأنّ القاتل قال بالحرف إنّه لم يقرأ كتبه، لكنّه كان أداة منفّذة لمصلحة بشرٍ آخرين، كانوا يرون محفوظ خطرًا على مستقبلهم.

نعم هؤلاء يجب ألّا يُفسِح لهم مكانًا، ولا يمنحهم فرصةً للوقوف إلى جانبه، ويجب أن يغيبوا عن صوره الباقية في وجدان قرّائه المتناسلين عبر الزمن.

75

أحد الأشياء التي يجب أن يتأمّلها الكاتب جيّدًا، موت موهبة أحد من أبناء جيله، لأنّ المواهب لا تموت بطريقةٍ واحدة. كلّ عصر وكلّ بلد وكلّ ثقافة لديها طرق مختلفة لموت مواهب أبنائها، لذلك عليه تأمّل ذلك، وإن استطاع مساعدة أيّ شخص موهوب عليه ألّا يتردّد في ذلك حتّى لو قابله فيما بعد بالجحود. الكاتب يفعل هذه الأشياء من أجله، العيش في عصر مزدحم بالمواهب والكتّاب الكبار يمنح تحدّيه طعمًا مختلفًا، وإنقاذ موهبة كإنقاذ غريق، طبعًا إن كان صديق الكاتب يصبح التخلّي عنه ندالة مهما كانت أسباب ذلك التخلّي. ويتحوّل الكاتب حتّى لو كان عبقريًّا ليكون من ذلك الصنف المشبع بالندالة. احترام الصداقة جزء أساسيّ من مشروع الكاتب.

76

على الكاتب أن يكتب في الليل أو بعد بزوغ الفجر بقليل، يكتب صبحًا أو ظهرًا أو مساءً، يكتب في الحرّ والبرد، في الفصول كلّها، يكتب في ثلاثة فصول ويذهب في الفصل الرابع لمرافقة الجياد إلى المرعى. المهمّ أن يكتب يوميًّا، هذه نصيحة المعلّمين الكبار، من ثرفانتس إلى همنغواي وغابرييل غارسيا ماركيز وأورهان باموك. سيعرف الكاتب معنى ما يقوله الأسلاف، الجلوس إلى الطاولة يوميًّا يمنح حياته سعادةً أبديّة، لا يمكن تلخيصها، ولا وصفها، أو الإمساك بها. إنّها روح هائمة في فضاءٍ مفتوح على الأبديّة. نعم الكتابة فضاء مفتوح على الأبديّة، يجب أن يكون الكاتب جديرًا بها لتمنحه قوّة الروح الهائمة.

خالد خليفة

اللاذقيّة – دمشق – أيوا – الولايات المتحدة

أمكنة مختلفة من العالم.

شتاء 2001 – حزيران 2015